مريم في القرآن الكريم والأناجيل: التناص الكتّابي ورحلة العبور. قراءة في كتاب السيدة مريم في القرآن الكريم من النص إلى الخطاب لحسن عبود

مراجعة: ريتا فرج*

حسن عبود. **السيدة مريم في القرآن الكريم من النص إلى الخطاب**. ط 2 مزيدة ومنقحة. بيروت: دار الساقي، 2022. ISBN 978-614-425-389-2

عرفتْ الدِّراسات الأكاديميّة حول الجندر والدين، تطورًا بارزًا في الجامعات الأوروبيّة والأميركيّة ومراكز البحوث والمجلات العلمية، وأولت اهتمامًا بأدوار النساء وتأثيرهن في صناعة الحدث الديني في اليهودية والمسيحية والإسلام؛ فدُرست نماذج نسائية عدة، وجرى الإعلاء من حضور المرأة في مجال المقدس وصناعته، بعدما أُقصي لقرون من مجال الوعي بفعل القراءات الأبوية الاختزالية.

تُعد السيدة مريم شخصية مركزية في التراثات الكتّابية ونصوصها، وتشكل قيمة روحية ورمزية مشتركة في المسيحية والإسلام. يتفاوت حضورها في الأناجيل، وقد احتفى بها إنجيل لوقا البشير، الذي تميّز باستخدامه نهج «الزوجية الجندرية» Gender Pair، وما تطلق عليه القسيسة في الكنيسة اللوثرية في نيو إنغلاند كونستانس بارفي Constance F. Parvey (1920-2011) في تسمية أصيلة «الاقتران بين الذكور والإناث» Male-Female Pairing. أما القرآن الكريم فكرَّس سورة لها وسماها باسمها «مريم»، على غير النهج القرآني في عدم تسمية النساء.

في الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة من كتابها **السيدة مريم في القرآن الكريم: من النص إلى الخطاب**، تدرس حُسن عبود النصوص القرآنية في خطاب سورتي مريم وآل عمران، وفق منحى تحليليّ نصيّ أدبي مع الاستعانة بالنظريات النقديّة الأدبيّة، للكشف عن الطبقات المتراكمة للشخصية المريميّة، وتحرير صوتها وصورتها المركبة من تاريخ طويل للتفاسير الذكورية، التي لم تنتبه إلى حضورها الذاتي والأمومي، إلى جانب حضورها كموضوعة كلامية (لاهوتية)؛ كما توضح الباحثة والأكاديمية اللبنانية.

الكتاب في الأساس أطروحة دكتوراه قُدمت في جامعة تورنتو الكندية عام 2006، وقد طُبع في اللغة الإنجليزية عام 2014 تحت عنوان *Mary in the Qur'an, A Literary Reading* عن

* محاضرة وباحثة لبنانية في علم الاجتماع ودراسات المرأة.

دار Routledge وفي طبعته العربية الأولى الصادرة عام 2010 حمل عنوان **السيدة المريم في القرآن الكريم: قراءة أدبية.**

جاء الكتاب في تسعة فصول قدمت له الأستاذة الألمانية في الدراسات القرآنية أنجيليكا نويفرت Angelika Neuwirth التي تنبهنا إلى مسألة أساسية: أن هذا العمل أتى في خضم الخطاب الأكثر محافظة في الدراسات القرآنية في الغرب، التي غلب عليها الاهتمام بالمقاربة التاريخانية للقرآن؛ ومع أن الدراسات البيبلية العلمية، تزعم باستمرار أنها الأساس السليم للدراسات القرآنية، فإن هذا الزعم يقتصر على التحليل التاريخاني الوضعي، دون أخذه بالاعتبار المقاربات الحديثة التي تركز على الطبيعة الأدبية للنص الكتابي، أو التي لا تعير الاهتمام اللازم لطبقاته الضمنية والمعقدة. وفي التقديم الثاني للكتاب بقلم البروفيسور رضوان السيد، يُلاحِظ أن عبود تفردت في لفت نظرنا إلى «استقلالية مسألة مريم وشخصيتها في النص القرآني والمعالَجة القرآنية» (ص 23)؛ أي بوصفها ذاتًا مستقلة لها حضورها الأنثوي القوي والمؤثر.

تكمن فرادة الكتاب في منهجه، فقد انطلقت عبود من «دراسة عناصر السرد القصصي» (ص 42) وإمكانية تطبيق النظريات السردية الحديثة على الفن السردي القصصي القرآني؛ و«لأن قصة مريم شعائرية (ذكر)، أي ذات طبيعة شبه شعرية تعبدية» (ص 42) فقد اختارت الباحثة «أدوات أدبية تقوم علَى استكشاف الحوافز الأدبية الرئيسية 'الموتيفات' التي هي مكمن نظرية فلاديمير بروب Vladimir Propp لتحليل الحكاية الشعبية» (ص 42) مع فارق أنها لم تر أن قصة مريم حكاية شعبية خالية من البعد التاريخي، وساعدها ذلك على «الإمساك بالخيط الإجرائي بين الحوافز 'الموتيفات' القرآنية وحوافز 'موتيفات' مماثلة في القصص البيبلية والإنجيلية» (ص 42).

لعل الإشكالية الأساسية التي قام عليها الكتاب كما تحددها عبود هي: هل صورة الأنثوي/ الأمومي -عبر صورة أكثر النساء هيبة في القرآن الكريم- تعكس صورة قامعة أم محررة للمرأة عمومًا؟ أم أن الأنوثة مُعرَّفة بيولوجيًا أو علائقيًا بهذا المهمش في النظام الأبوي الرمزي؟

تحتاج الصور الأنثوية الغائرة في طبقات نصوص الكتب المقدسة، إلى حفر معرفي يؤدي أولاً إلى البحث في مدى مساهمة النساء في صناعة الحدث الديني، والظواهر التاريخية المرتبطة به؛ ويساهم ثانيًا في الكشف عن دورهن في إنتاج المعرفة الدينية، حجاجًا وتأويلاً. وعلى الرغم من الحضور الكتابي النسائي على مستوى النص، في الأسماء والنماذج، فإن الإسهام الحجاجي والتأويلي متفاوت بين اليهودية والمسيحية والإسلام. ولا يمنعنا هذا من الافتراض أن العلاقة بين القرآن الصاعد والقرآن النازل وحيًا، أبرزت التأثير النسوي، لا سيما إذا استحضرنا، سؤال أم سلمة التي قالت: «يا رسول الله ما لنا لا نُذكر في القَرآن كما يُذكر الرجال؟» فنزلت الآية 35 من سور الأحزاب.

في قراءتها الأدبية للآية 20 من سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ تُبيِّن عبود أن تكرار حرف السّين مرتين في كلمة يمسَسْني، مع اختلاف الصوت فيه بين الفتحة والسكون لم يكن اعتباطيًّا. فعلى الرغم «أن المسّ أو المساس المذكور هنا كناية عن فعل الجماع كما تقول المصادر، فإن هناك ملمحًا أكثر دقة في التعبير عن السيدة مريم، بوصفها صاحبة القول هنا. إذ كان يمكن أن تقول: ’لم يمسّني‘ عوضًا عن: ’يمْسَسْني‘، لكن في الفعل الأول الشدّة على السين ترفع همسها قليلاً إلى مستوى التسميع لأنها تزيد مدة النطق بالكلمة، بينما فكّ الشدة على السين ونطقها سينَين أولهما مفتوح خفيف الحركة وثانيهما ساكن، يوحي بإيغال في الهمس واختلاسٍ لزمن نطق الكلمة تأدبًا وترفعًا عن معناها، من هذه البنت العذراء الحييّة» (ص 99).

إن الحافز الأهم في التحليل النصي الأدبي الذي قامت به عبود، قراءتها لحضور مريم القرآني، وخوضها رحلة الخروج والانتباذ بمفردها في الصحراء، كما فعل الأنبياء في العهد القديم. وعلى عكس الأناجيل غير الرسمية، تخوض مريم معاناة الأمومة والرحلة برفقة يوسف البار وابنها يسوع. هذا التناص الأدبي القرآني الأبوكريفي، قارنته الباحثة بإنجيل لوقا. فعلى مستوى شكل السرد ترد قصتا بشارة زكريا ومريم متطابقتين في سورة مريم (1-33) وفي الإنجيل بحسب لوقا (1: 5-56). وفي هذا السياق التحليلي الأدبي، تخلص عبود إلى أنَّ «التعبيرات اللغوية التي تدور بين المتحاورَين وتفاعلهما الذاتي مع الأحداث تبدو واحدة: من نداء زكريا لربه ليهبه الذرية وخوفه من انقطاع عقبه، إلى اضطرابه أمام البشارة على يد الملاك وإصابته بالخرس. وكذلك الأمر بالنسبة لمريم والملاك، وإن كانت مريم في ردود فعلها أكثر دراماتيكية في السردية القرآنية منها في الإنجيل» (ص 198).

تحضر مريم بوصفها «أنا متكلمة» في القرآن الكريم، وإن بدا الكلام أو الحوار الجدلي صامتًا وغير مباشر. أما في إنجيل لوقا، تظهر في التسبحة بصورة «الأنا المتكلمة» أيضًا و«العارفة بدينها»، فتغلب «الذات المتأملة والمفكرة» المتضامنة مع المهمشين والمستضعفين، على «المرأة الحاضنة» وعلى «الأمومة».

يعرض الفصل الثامن من الكتاب، استجابة عدد من المفسرين المسلمين لمسألة تلقي مريم الوحي من الله، ويناقش تفسير كل مفسر لهذه المسألة المتصلة بنبوة مريم، التي تعد سمة من السمات التقليدية في التراث المريمي، منذ سميِّت ميريام أخت هارون وموسى بالنبية في سفر الخروج. تعود الباحثة إلى ابن حزم الأندلسي (ص 222) الذي أعطى مريم صفة النبوة؛ قائلاً: «ووجدناه -تعالى- أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى -عليهما السلام- يُخاطبها وقال لها ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم 19: 19)، فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من

الله -تعالى- إليها». وقد وافق القرطبي ابن حزم في نبوة مريم مُستحضرًا آية الاصطفاء (آل عمران 3: 42)، كما تلفت عبود.

الجدير بالذكر، أن سبينوزا في **رسالة في اللاهوت والسياسة** أضفى على هاجر أم إسماعيل، هبة النبوة؛ «والنبوة عنده لا تشترط العلم والعقل، فكلما زاد الخيال قل الاستعداد لمعرفة الأشياء بالذهن والعقل»[1]. في حين لموسى بن ميمون في دلالة الحائرين رأيٌ مغايرٌ يرجع فيه إلى تقليد ممتد تاريخيًا، فقد رأى أن المصرية هاجر لم تكن نبية. إنها لم تكن منذورة إلى ذلك، ولذلك فإن رؤيتها تدخل في باب الخيال الجامح والخادع. واسبينوزا- كما يوضح المحلل النفسي فتحي بن سلامة- الكاتب الوحيد الذي رفع من شأن هاجر نوعًا ما، لأن هذه المرأة لقيت (...) مصير التحقير والشطب والنسيان، وكأن تطليقها (أي طرد إبراهيم لها) لم يكفّ عن ملاحقتها في ثنايا الذاكرة التوحيدية[2]. في حين أنَّ الأرشيف التوحيدي يكشف عن كتابة عنها أقل جزمًا وصرامة، ذلك أنَّ صورة هاجر مرتبطة في هذا الأرشيف، بمسألة التأسيس التي تحدد إمكان الأصل وإمكان كتابته في اتجاه سفلي[3].

انشغلتْ عبود في إجراء المقارنات الأدبية والنصية بين «مريم القرآنية» و«مريم الأناجيل»، وهذا ما يميز عملها، فأعطاه بعدًا تفيد منه الدراسات النسوية وحقل دراسات حوار الأديان، وإن اتخذ أحيانًا، طابعًا لاهوتيًا أو كلاميًا سجاليًا؛ فالتناص الكتابي، الذي يكاد يطغى على فصول كتاب يرفع من القيمة المعرفية لعلم الأديان المقارنة والشخصيات العابرة بين النصوص، والمناهج المستخدمة فيها، ويساعد على تفعيل الجهود العلمية لتأسيس فهم أعمق وأوسع لإشكاليات الجندر والأديان في السياق المقارن لـ: «اللاهوت النسوي الإبراهيمي».

قدمت عبود عملاً جادًا، في مجال ما نسميه «الدراسات المريمية القرآنية»، فمن النادر أن نجد في المكتبة العربية، تحليلاً يهتم بالنص الأدبي القرآني وطبقاته، فيعمل على إخراج المهمش الأنثوي الغائر فيه، عبر تفكيكه وقراءته، وإثبات مركزية الأنثوي فيه، كما تفعل الباحثات في اللاهوت النسوي المسيحي، من خلال عملهن الدؤوب على إعادة بناء الأصول والتقليد المسيحيين.

1 اسبينوزا، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، ترجمة وتقديم: حسن حنفي (بيروت: دار التنوير، 2008)، ص 141.

2 يُنظر: فتحي بن سلامة، **الإسلام والتحليل النفسي**، ترجمة وتقديم: رجاء بن سلامة (بيروت: دار الساقي، 2008)، ص 153-154.

3 المرجع نفسه، ص 154.